

شرح منظومة

السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ وَالطَّارِ الْآخِرَةِ

لِلشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ

رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَسْكَنَهُ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ

شرح

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ ابْنِ طُوقِ الْمُرِّي

- سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى (١) وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوَانِ
- فَهُمُ الَّذِينَ قَدْ اخْلَصُوا فِي مَشْيِهِمْ (٢) مُتَشَرِّعِينَ بِشَرْعَةِ الْإِيمَانِ
- وَهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ (٣) بَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ لِلدِّيَانِ
- وَهُمُ الَّذِينَ مَلَأُوا قُلُوبَهُمْ (٤) بِوَدَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ
- وَهُمُ الَّذِينَ قَدْ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ (٥) فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ وَالْأَخْيَانِ
- يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمَلِكِ بِفِعْلِهِمْ (٦) طَاعَاتِهِ وَالتَّزَكُّ لِّلْعَصِيَانِ
- فِعْلُ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ دَأْبُهُمْ (٧) مَعَ رُؤْيَا التَّقْصِيرِ وَالتَّقْصَانِ
- صَبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى الْمَكَارِهِ كُلِّهَا (٨) شَوْقًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَانِ
- نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرِّضَا فَهُمْ بِهَا (٩) قَدْ أَصْبَحُوا فِي جَنَّةٍ وَأَمَانِ
- شَكَرُوا الَّذِي أَوْلَى الْخَلَائِقَ فَضْلَهُ (١٠) بِالْقَلْبِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَرْكَانِ
- صَحِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ (١١) مَعَ بَذْلِ جُهِدٍ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ
- عَبَدُوا إِلَهَهُ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُورِهِ (١٢) فَتَبَوَّءُوا فِي مَنْزِلِ الْإِحْسَانِ
- نَصَحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَا مَحَبَّتِهِمْ (١٣) بِالْعِلْمِ وَالْإِرْشَادِ وَالْإِحْسَانِ
- صَحِبُوا الْخَلَائِقَ بِالْجُسُومِ وَإِنَّمَا (١٤) أَرَوَّاحُهُمْ فِي مَنْزِلِ فَوْقَانِي
- رَعَوْا الْحَقَائِقَ وَالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا (١٥) خَوْفًا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ
- عَزَفُوا الْقُلُوبَ عَنِ الشَّوَاغِلِ كُلِّهَا (١٦) قَدْ فَرَّغُوهَا مِنْ سِوَى الرَّحْمَنِ
- حَرَكَاتُهُمْ وَهُمُومُهُمْ وَعُزُومُهُمْ (١٧) لِلَّهِ لَا لِلْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ
- نِعَمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي (١٨) تُفْضِي إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين^(١).

أما بعد فإن القلوب مفتقرة إلى تعاهد وتربية وإصلاح، وذلك أنها إذا استقامت؛ استقامت للإنسان أحواله، وصلحت أعماله، وحصل له من الانشراح واللذة والسرور والحياة الطيبة ما لا يُقادر قدره ولا يحاط بوصفه قال ﷺ: **«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»**^(٢). وانظر إلى أطول قسم في القرآن قال الله تعالى:

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاها ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ أَقْسَمُ اللَّهُ تَعَالَى

هنا أحد عشر قسماً، والمقسم عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ المقسم عليه هنا ليس حقيقة إيمانية فحسب بل هو غاية عظمى، حرية بأن تجعلها همك في حياتك، وهي تزكية النفس، فعلم التزكية علم عظيم ينبغي أن توليه عنايتك. والوقوف معه تعظيم لما عظمه الله تعالى. يكفيك في بيان فضله قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ

سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ فالقلب السليم هو الذي لا ينفك عند الله غيره، وهو الذي تنجو به عند الله. ثم هو محل نظر الله تعالى قال ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»**^(٣) ومع هذا الفضل العظيم، فله ثماره الياقة التي يجتنيها من أخذه بحقه، وعمل به من ذوق حلاوة الإيمان، ولذة الطاعة، وانشراح الصدر، ولا تزال كذلك تترقى في هذه المقامات حتى تصل إلى أعلى مقامات الدين، أن تعبد الله كأنك تراه.

ولأهميته تجد أن التصنيف فيه قد بدأ مبكراً، إما استقلالاً كما ألف الإمام أحمد كتاب الزهد، أو ضمن كتب الحديث المسندة كما فعل البخاري في جامعه الصحيح حيث عقد كتاب الرقاق، لكن مع هذه الأهمية فكثير من الناس بل من النخب قد قصروا في أعمال القلوب.

^(١) رابط الشرح الصوتي المفرغ للمنظومة

رابط آخر للشرح الصوتي

جزى الله خيراً كل من راجع هذا الشرح قبل نشره ومنهم الشيخ حسن محمد الكاهلي والشيخ سعد الدين الظفيري والشيخ عثمان فوزي والشيخ يوسف إبراهيم صالح.

^(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

^(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

وانظر إلى قول الله تعالى عن السابقين: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٣﴾ و﴿قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٤﴾ لماذا أهل السبق في آخر هذه الأمة قليل؟ لأن منزلة السبق إلى الله تعالى لا تُنال بمجرد العمل الظاهر، وإنما تنال بأعمال القلوب، وكثيرٌ من الناس قصرُوا في تعاقد قلوبهم وإصلاحها، حتى إن الواحد منهم تمر عليه الأيام بل يمر عليه الأسبوع بعد الأسبوع وما دمعت عينه من خشية الله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ لكن لا تيأس، قال الله تعالى بعدها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فالذي يحيي الأرض بعد موتها قادرٌ على أن يحيي القلوب ويوقظها من غفلتها.

فتزكية النفس شأنها عظيم، وعلى العبد ألا يكون غافلاً عنها في زحمة أعماله ولو كانت أعمالاً علمية أو دعوية، بل ينبغي أن يبذل طاقته وقواه كلها في تزكية نفسه وإصلاح قلبه وتحقيق العبودية لله جل جلاله، فالسير إلى الله سير القلوب، وانظر إلى اسم هذه المنظومة التي هي محل مُدارستنا "منظومة السير إلى الله والدار الآخرة" ما الذي ذكره الشيخ فيها؟ ذكر أعمالاً قلبيةً وسماها "منظومة السير إلى الله والدار الآخرة" ذلك أن السير إلى الله تعالى هو سير القلوب، والجوارح لها تبع. قال -رحمه الله:-

سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوَانِ

بدأ الناظم -رحمه الله- ببيان قاعدة السير إلى الله التي عليها مدار السعادة، وهي أمران:

الأول: تجنُّب سبل الهلاك وذلك بالتَّزُّه عن المعاصي والسيئات.

والثاني: قصد ما يحقّق للعبد رضوان الله تعالى.

فالأول: تخلٍّ عن الأوصاف الرذيلة، والثاني: تحلٍّ بالأوصاف الكاملة ومنها ما سيذكره هنا من صفات السائرين إلى الله تعالى.

قال - رحمه الله:-

فَهُمُ الَّذِينَ قَدْ اخْلَصُوا فِي مَشْيِهِمْ مُتَشَرِّعِينَ بِشِرْعَةِ الْإِيمَانِ

من صفاتهم أنهم أخلصوا في عبادتهم لله تعالى، فلم يقصدوا بها إلا وجهه، وقد قال الله تعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ

إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وقد أخبرنا النبي ﷺ أن أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة

ثلاثة: عالم، ومنفق، ومجاهد. فالعالم تعلم العلم ليقال: عالم وقد قيل، والمنفق تصدق ليقال: جواد

وقد قيل، والمجاهد جاهد ليقال: شجاع وقد قيل، فهؤلاء أول خلق الله تُسعر بهم النار يوم القيامة^(١).

حديثٌ قد قيلَ بعيدٌ يُقالُ أدهشَ كُلَّ عاقلٍ ذاكَ المآلُ^(٢)

(١) أخرج الترمذي (٢٣٨٢) عن شُفَيِّ الأصبحي أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكنت وخلا قلت له: أسألك بحق وبحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثتك حديثاً حدثنيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكثنا قليلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثتك حديثاً حدثنيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم أفاق فمسح وجهه فقال: أفعل، لأحدثتك حديثاً حدثنيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارا على وجهه فأسندته علي طويلاً، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "أن الله -تبارك وتعالى- إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للمقارئ: ألم أعلمكم ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: إن فلانا قارئ فقد قيل ذاك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذاك" ثم ضرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على ركبتي فقال: «يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة» وقال الوليد أبو عثمان: فأخبرني عقبة بن مسلم أن شُفَيَّا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم، أنه كان سيفاً لمعاوية فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك، وقلنا قد جاءنا هذا الرجل بشراً، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون} وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (٣٥٢/١) وأصله في صحيح مسلم (١٩٠٥).

(٢) البيت للشيوخ محفوظ محمد المصطفى البصادي الأنصاري الشنقيطي -حفظه الله-.

وبقدر إخلاصك تكون قوتك في العبادة وفي طلب العلم، فإنَّ العبد إذا أخلص لله وهبه الله قوة لا تُدرَك بالأسباب الظاهرة.

اعْمَلْ لَوَجْهِ وَاحِدٍ يَكْفِيكَ كُلَّ الْأَوْجِهْ

ومما يُعين على تحقيق الإخلاص الدعاءُ ففي حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- أنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ**» فقال له مَنْ شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ**»^(١).

انظر كيف أرشد إلى الدعاء، وذلك لأن قلوبنا ليست بأيدينا، بل بيد الله، قال -صلى الله عليه وسلم-: «**الْقُلُوبُ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»^(٢) فعليك بالدعاء.

وكان من دعاء عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "اللهم اجعل عملي كله صالحا، واجعله لوجهك خالصا، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئا"^(٣).

ومما يُعين على تحقيق الإخلاص أن تعلم أن العمل بلا إخلاص مردود، فالعمل -كما يقول ابن الجوزي^(٤)- صورة والإخلاص روح، إذا لم تُخلص فلا تتعب. لو قطعت سائر المنازل لم تكن حاجا إلا بشهود الموقف. يعني: لو أن رجلا نزل بالمزدلفة، وبات بمِني، وطاف الإفاضة لكنه ما وقف بعرفة، هل حجَّ؟ هذا لم يُحج، فكذلك مَنْ يعمل بأنواع الطاعات لكن بغير إخلاص هذا يُتعب نفسه، قال ﷺ: قال الله -تبارك وتعالى-: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ**»^(٥).

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٩٦٠٦) وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢١/١): حسن لغيره.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤) وهو عند مسلم (٢٦٥٤) بلفظ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلُّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ**

مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**».

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٦١٧).

(٤) اللطف في الوعظ ص (١٠).

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

فالشرك بؤس وهو شر عاقبه والله أغنى الشركاء قاطبه
وقال ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟
قال: «الرِّيَاءُ. يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»^(١).

والنية اجعل لوجه الله خالصةً إنَّ البناء بدون الأصل لم يقيم
ومن يكن ليقول الناس يطلبه أخسر بصفقته في موقف الندم
ومن به يبتغي الدنيا فليس له يوم القيامة من حظ ولا قسم
فالعمل بلا إخلاص هباء، هذا عبدالله بن جُدعان كان من الكرماء الأجواد يصل الرحم،
ويطعم المسكين، وكانت له جفنة عظيمة يُسْتَظَلُّ بها من عظمها، يأكل منها الراكب على بعيره،
وجعل منادياً ينادي على ظهر الكعبة أن هلموا إلى جفنة ابن جُدعان، قال أمية بن أبي الصلت
في ذلك:

لَهُ دَاعٍ بِمَكَّةَ مُشْمَعِلٌ وَآخِرُ فَوْقَ كَعْبَتِهَا يُنَادِي
إِلَى رُدُجٍ مِنَ الشَّيْزَى مِلَاءٍ لُبَابَ الْبِرِّ يُلَبِّكُ بِالشَّهَادِ

ومع هذا كله ثبت في صحيح مسلم^(٢) عن عائشة -رضي الله عنها- أنها سألت النبي ﷺ فقالت: يا
رسول الله ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟ قال: «لَا
يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ».

فالعمل بلا إخلاص طاقة مهدرة، وجهود مبعثرة.

وهذا حاتم الطائي، مضرب المثل في الكرم والجود، كان يقول لزوجته:
إِذَا مَا صَنَعْتَ الزَادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَحْدِي
أَخَا طَارِقًا أَوْ جَارَ بَيْتٍ فَإِنِّي أَخَافُ مَذَمَّاتِ الْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي

(١) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠)، وصححه الألباني.

(٢) (٢١٤).

ولما قالت له زوجته: أهلك ما لنا، قال:

وقائلة: أهلك بالجود ما لنا ونفسك حتى ضرت نفسك جودها

فقلت: دعيني إنما تلك عادتي لكل كريم عادة يستعيدها

وكان إذا جنَّ الليل يُوعِزُ إلى غلامه أن يوقد النارَ في يَفَاجٍ من الأرض لينظر إليها من أضل الطريق ويأتي إلى منزله، ويقول لغلامه:

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قُرٌّ وَالرَّيْحُ يَا مُوقِدُ رِيحٌ صِرٌّ

عسى يرى نارك من يمرُّ إِنَّ جَلَبْتَ ضِيْفًا فَأَنْتَ حُرٌّ وما أتاه أحدٌ فردَه خائبًا، كان يقول:

قُدُورِي بِصَحْرَاءَ مَنْصُوبَةٌ وما ينبح الكلبُ أضيافه

وإن لم أجد لنزيلي قَرِيَّ قَطَعْتُ لَهُ بَعْضَ أَطْرَافِهِ

ومع هذا كله قال عديُّ ابنه للنبي ﷺ: يا رسول الله إن أبي كان يصل الرحم ويفعل كذا وكذا،

-يعني أنافعه ذلك؟-، فقال ﷺ: «إِنَّ أَبَاكَ أَرَادَ أَمْرًا فَأَذَرَكَ». يعني: أراد الذكر.

وشعر حاتم الطائي يشهد بهذا، فهو الذي يقول:

أُمَاوِيَّ إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحٌ وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

كل ذلك لم ينفعه لأنه لم يكن لله، وإنما أراد به الذكر والشهرة والمحمدة في قلوب الخلق.

ومما يعين على تحقيق الإخلاص الحرص على عبادات الخفاء والنظر في أحوال السلف في

ذلك، قال الحسن البصري: "إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل

لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده

الزُّوَار وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرّون على أن

يعملوه في سر فيكون علانية أبدًا"^(١).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤٧/١٠).

وقد قال الزبير بن العوام -رضي الله عنه-: "من استطاع أن تكون له خبيثة من عمل صالح فليفعل"^(١).

وكان أبو وائل شقيق بن سلمة إذا صلى في بيته يَنشِجُ نشيجاً لو جعلت له الدنيا على أن يفعله وأحد يراه ما فعله"^(٢).

وهذا ابن المبارك حينما خرج في غزو بلاد الروم فالتقى المسلمون بالعدو، خرج عِلْجٌ من العدو يطلب المبارزة ويدور بين الصفين، نخرج له رجل من المسلمين فما أهله العِلْجُ أن قتله، نخرج الثاني فقتله العِلْجُ، نخرج الثالث فقتله، نخرج له ابن المبارك فصاوله ثم قتل العِلْجُ، فاجتمع عليه الناس ينظرون من الذي قتل هذا العِلْجُ الذي آذى المسلمين، فجعل يغطي وجهه بكُمِّه حتى جاء أحدهم فرفع كُمِّه عن وجهه، فإذا هو عبدالله بن المبارك، فقال له ابن المبارك: "وأنت ممن يُشَنِّع علينا" سَخَطَ عليه فعله"^(٣).

وهذا رجل مسلم كان في جيش مَسْلَمَة بن عبد الملك وقد حاصر مَسْلَمَة حصناً من حصون الكفار، وندب الناس للدخول من نَقَبٍ في الحصن، فما دخله أحد، ثم إنه جاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم، فنادى مَسْلَمَة: أين صاحب النقب؟ فما جاء أحد، حتى نادى مراراً وفي كل ذلك لا يخرج إليه أحد، فقال: إني عزمت عليه أن يأتي، فلما كان الليل أتى رجل بلثامه فقال: صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً، ألا تجعلوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، وألا تأمروا له بشيء، وألا تسألوه ممن هو. فقال مَسْلَمَة: ذلك له، فقال الرجل: أنا هو، ثم ذهب، فكان مَسْلَمَة لا يصلي صلاة بعد ذلك إلا قال: اللهم احشرنى مع صاحب النقب"^(٤).
هكذا كانوا.

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٧٧٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء (١٠١/٤).

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٤٠٠/١١).

(٤) أخرجه ابن قتيبة في عيون الأخبار (٢٦٦/١).

سَلَفٌ إِذَا مَرَّ الزَّمَانُ بِذِكْرِهِمْ وَقَفَ الزَّمَانُ لَهُمْ مُجَلًّا مُكْبِرًا

لذلك ليست العبرة بالشهرة، بل العبرة بحالك مع الله، الصحابة الذين توفي عنهم النبي ﷺ أكثر من مئة ألف، كما قال السيوطي:

وَالْعَدُّ لَا يَحْصُرُهُمْ تَوَفِّي عَمَّا يَزِيدُ عَشْرَ أَلْفِ أَلْفٍ
يعني عما يزيد على مئة ألف.

وهؤلاء منهم من هم مع النبي ﷺ في الفردوس الأعلى من الجنة، ومع ذلك لا يعرفهم منا أحد، ما ذكرهم ابن عبد البر في «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، ولا ذكرهم ابن الأثير في «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، ولا ذكرهم ابن حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة» وكتابه أجمع الكتب المؤلفة في أسماء الصحابة وأشملها وأوسعها، ومع ذلك فالتراجم التي فيه لا تصل إلى ثلاثة عشر ألفاً، وليسوا كلهم من الصحابة، فالقسم الثالث منه في المخضرمين، والقسم الرابع في من ذكر من الصحابة على سبيل الوهم والغلط. فالصحابة أكثر من مئة ألف، والذين ذكروا في الكتب لا يبلغون إلا شيئاً يسيراً من هذا العدد، ومع ذلك فمنهم من هو مع النبي ﷺ في الفردوس الأعلى ولا يعرفه منا أحد، فليست العبرة بالشهرة، بل كان السلف يفرون من الشهرة.

قال إبراهيم بن أدهم: "ما صدق الله عبدٌ أحب الشهرة"^(١).

وقال بشر بن الحارث: "لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس"^(٢).

وقال أيوب: "والله ما صدق عبدٌ إلا سرّه ألا يُشعر بمكانه"^(٣).

وهذا الإمام الشافعي يقول: "وددت أن الناس تعلموا هذا العلم -يعني كتبه- على ألا يُنسب إليّ منه شيء"^(٤).

(١) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء (٣١/٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء (٣٤٣/٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء (٦/٣).

(٤) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (٢٥٨/١).

والإمام أحمد يقول: "طوبى لمن أحمل الله ذكره"^(١).

وأخبار السلف في ذلك مستفيضة.

وإثارة الخمول والرغبة عن الشهرة ليس معناه أن يترك الإنسان تعليم العلم والدعوة إلى الله، فليس لأحد أكرمه الله بالعلم أن يقعد في بيته، ويترك الدعوة إلى الله، ونشر الخير، ويقول: كان السلف يستترون بأعمالهم وكانوا لا يحبون الظهور. هذا قول من لا يعرف أحوالهم، فإنهم مع ما تقدم من عظيم أحوالهم في الإخلاص، كانوا أبذل الناس للعلم، وكانوا يجلسون في مجالسهم، وينشرون الخير، ويعلمون العلم، فهذا هو التعامل الصحيح مع هذه الآثار.

قال - رحمه الله -:

وَهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ بَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ لِلدِّينِ

الخوف والرجاء للمؤمن كالجنحين للطائر، يطير بهما في سماء العبودية.

انظر إلى اقترانهما في القرآن: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ ﴿هَذَا الْخَوْفُ، ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ هَذَا الرَّجَاءُ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ هَذَا الرَّجَاءُ، ﴿وَرَهَبًا﴾ هَذَا الْخَوْفُ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.

فهم في جميع منازل سيرهم بين الخوف والرجاء، ينظرون إلى تقصيرهم فيحدث ذلك لهم الخوف من الله، وينظرون إلى عظيم فضله - سبحانه وتعالى - فيحدث ذلك لهم الرجاء.

وكلما ازداد العبد إيمانا ازداد خوفه ورجاؤه. قال بكر بن عبد الله المزني: "لو أن منادياً ينادي من السماء أنه لا يدخل الجنة منكم إلا رجل واحد لكان ينبغي لكل إنسان أن يلتمس أن يكون هو

^(١) أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٣٠٦/١).

ذلك الواحد -لعظيم رجاءه-، ولو أن منادياً ينادي من السماء أنه لا يدخل النار منكم إلا رجل واحد، لكان ينبغي لكل إنسان أن يفرق أن يكون هو ذلك الواحد -لعظيم خوفه-^(١).

وكيف لا يرجو العبد ربه وهو الذي وسعت رحمته كل شيء قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هم المسرفون على أنفسهم بالمعاصي ومع ذلك أضافهم إلى نفسه، ونهاهم عن القنوط من رحمته، وأخبرهم أنه يغفر جميع الذنوب. بل قال الله تعالى في الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال في أصحاب الأخدود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ قال الحسن البصري: "انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة"^(٢).

وقال النبي ﷺ للصحابة في المرأة التي كانت تسعى تطلب ولدها إذا وجدت صبياً في السبي أخذته وضمته إلى صدرها وألصقته ببطنها وأرضعته: «أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ» قالوا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه، قال ﷺ: «لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدَهَا»^(٣).

فهذه الأدلة تبعث القلب على الإقبال على الله تعالى وحسن رجائه، وتبسط الأمل أمام العبد بسعة رحمة الله تعالى فيتوب ويحسن العمل مهما كانت ذنوبه، وكم غرّ الشيطان من أقوام بوسوسته لهم يقول: إنك منافق؛ لأنك تتوب ثم ترجع إلى معصيتك، فتخرج للناس بثوب الإحسان وأنت تخفي من أعمالك السيئة ما الله مطلع عليه، وهذا وسواس من الشيطان، فالعبد ما دام راجياً عفو ربه طامعاً في مغفرته فهو على خير عظيم، والمؤمن من سرته حسنته وساءته سيئته، فينبغي

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٢٤/٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٧١/٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤).

على العبد أن لا يحمله الذنب - وإن تكرر - على اليأس والقنوط، بل عليه أن يتوب ويُقلع عن الذنب ويعزم على ألا يعود، وهو بندمه وتوبته وإقباله على الله ﷻ ليس منافقاً.

وقد كان السلف يُعظمون رجاءهم، قرأ رجل عند يحيى بن معاذ قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ فبكى يحيى وقال: "إلهي هذا رفئك بمن يقول: أنا الإله، فكيف رفئك بمن يقول: أنت الإله" (١). وقال سفيان الثوري: "ما أحب أن حسابي جعل إلى والدي، ربي خير لي من والدي" (٢). وقد مرض أعرابي فقيل له: إنك تموت، فقال: وأين أذهب؟ قالوا: إلى الله ﷻ، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه" (٣).

وينبغي للعبد أن يقرن إلى الرجاء الخوف، فالخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا اعتدلا استطاع الطيران، وإذا اختل واحد منهما سقط الطائر.

والخوف من المقامات العلية وهو من لوازم الإيمان قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه، وترحل الخوف من القلب علامة ترحل الإيمان، قال الله تعالى في وصف أهل الإيمان: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت وفزعت.

وهذا رسول الله ﷺ - وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - يقول: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدْ التَّعَمَّ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْظُرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفَخَ فَيَنْفَخُ» قَالَ الْمُسْلِمُونَ: فَكَيْفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قُولُوا: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» (٤).

وقال عبدالله بن الشخير - رضي الله عنه - : «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَصِلِي وَلَجُوفِهِ أَزِيذُ كَأَزِيذِ الْمَرْجَلِ مِنَ الْبَكَاءِ» (٥). وهكذا كان الصحابة، كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - إذا قام إلى الصلاة

(١) تفسير البغوي (٢٧٥/٥)، وتفسير القرطبي (٢٠١/١١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٣٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٤٠).

(٤) أخرجه أحمد (١١٠٣٩)، والترمذي (٣٢٤٣)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٦/٣).

(٥) أخرجه أحمد (١٦٣١٢)، وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤) وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢٠٦/٢):

إسناده قوي.

كأنه عودٌ من خشية الله^(١). وعمر -رضي الله عنه- يُسمع نشيجه من آخر الصفوف وهو يصلي بالناس يقرأ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^(٢). وعثمان -رضي الله عنه- كان إذا وقف على قبر يبكي حتى يبلّ لحيتَه^(٣). وابن عباس -رضي الله عنهما- كان تحت عينيه مثلُ الشراك البالي من الدموع^(٤). وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أتى على قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ جعل يرددّها ويبكي حتى أصبح^(٥). هكذا كانوا، وهكذا كان الصالحون بعدهم، كما قال ابن المبارك^(٦):

إذا ما الليلُ أظلمَ كابدوه فيُسفرُ عنهمُ وهمُ رُكوعُ
أطارَ الخوفُ نومهمُ فقاموا وأهلُ الأمنِ في الدنيا هُجوعُ

هذه حالهم مع ما كانوا عليه من الاجتهاد في العمل، فينبغي أن يعرض العاقل نفسه على حالهم، وأن ينظر في تقصيره، وأن ينهض بهمته، ويجدّ في الائتساء بهم لعله يصل إلى شيء من أحوالهم.

وهذا الخوف أمانٌ لهم يوم الفرع الأكبر، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «وعرّتي لا أجمعُ لعبدي أمينين ولا خوفين، إن هو أمني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنتَه يوم أجمع عبادي»^(٧).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧٢٤٥).

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٢٧١٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٧٨٤).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (١٠١٥).

(٦) انظر: التخويف من النار ص ٣٨.

(٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١٥٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩٨/٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣٦٧/٢).

وقد ضمن الله الجنة لمن خافه فقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿والخشية خوف مقرون بعلم لعظمة من يخشى وكمال سلطانه.

قال -رحمه الله:-

وَهُمُ الَّذِينَ مَلَأَ الْإِلَهُ قُلُوبَهُمْ يُوَدِّدُهُ وَحُبَّةُ الرَّحْمَنِ

هذه منزلة المحبة، وهي التي تنافس فيها المتنافسون، وذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة. ومحبة الله تعلق القلب به -جل جلاله-، ومن هذا التعلق تنشأ جميع الأعمال الصالحة، فهي بمنزلة الرأس للطائر. والمحبة روح الأعمال متى خلا القلب منها كان كالجسد الذي لا روح فيه. وقد امتحن الله كلَّ مَنْ ادعى محبته بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فالصادق في محبته لله برهان صدقه طاعته لله واتباعه لرسوله ﷺ.

تعصي الإله وأنت تزعم حبه عارٌ عليك إذا فعلت شنيع
لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

والحبة إذا رسخت في قلب صاحبها لم يرد شيئاً في دنياء، إلا أن يقترب من الله، وأن يبذل حياته لدين الله، لا ينتظر من الناس جزاء ولا شكوراً. إذا وجدته في المتعبدين فهو أكثرهم خشوعاً، وإذا نظرت إليه في نفع الخلق ونشر العلم فهو أكثرهم اجتهاداً، لأن محبة الله استولت على قلبه فهي التي تحركه إلى العمل.

وقد كان حكيم بن حزام -رضي الله عنه- يقول وهو يطوف بالبيت: "لا إله إلا الله، نعم الرب ونعم الإله، أحبه وأخشاه" ويكررها^(١). قال بعض السلف: "مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها" قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: "محبة الله والأنس به والشوق إلى لقاءه والتنعّم

(١) انظر: تاريخ دمشق (١٥/١١٨).

بذكره وطاعته^(١). وقال آخر: "والله ما طابت الدنيا إلا بحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته"^(٢). وكان الفضيل بن عياض يقول: "ارحمني بجي إياك فليس شيء أحب إلي منك"^(٣). وبين المحبة والإثثار من ذكر الله تلازم، فمن أحب الله أكثر من ذكره، وكذلك الإثثار من ذكر الله يورث محبته؛ لذا أتبع منزلة المحبة بقوله -رحمه الله:-

وَهُمُ الَّذِينَ قَدْ اكْتَرَوْا مِنْ ذِكْرِهِ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ وَالْأَحْيَانِ

وكيف لا يكثر من ذكره وهو الذي لا تطيب القلوب إلا بذكره ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

وذكر الله حاجتك إليه فوق كل حاجة، ونفعه لك فوق كل نفع.

وقد ندب الله عباده إلى الإثثار من ذكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿٤١﴾ ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

ولما أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فباب نتمسك به جامع، قال النبي ﷺ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(٤). فهذا الصحابي طلب من النبي ﷺ أن يدلّه على باب جامع من أبواب الخير يخصّه بمزيد اعتناء، فكان الجواب من النبي ﷺ أن دلّه على المداومة على ذكر الله تعالى، وألا يزال لسانه رطباً من ذكر الله. وقال ﷺ: قال الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ، ذَكَرْتُهُ

(١) إغاثة اللهفان (١/١١٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/١٠٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٦٨٠)، والترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (٧٦٩٥).

فِي مَلَأٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ^(١). يقول ابن القيم: "لو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً"^(٢). فأنت إذا ذكرت الله فالله معك بمعيتة الخاصة بعينك ويحفظك ويهديك ويوفقك بل ويذكرك إذا ذكرته، استشعار هذا يجعلك في يقظةٍ وغيرَةٍ على وقتك أن يذهب في غير ذكر الله.

لَحْظَةً يَا صَاحِبِي إِنْ تَغْفُلُ أَلْفَ مِيلٍ زَادَ بَعْدُ الْمَنْزِلِ
وقال النبي ﷺ: **«سَبَقَ الْمَفْرَدُونَ»** قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: **«الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»**^(٣).

وكما يطلب الإكثار من ذكر الله، فكذلك يُطلب إحسانه بحضور القلب فيه، قال ابن القيم: "أفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب للسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده"^(٤).

واذكر بقلبٍ خاشعٍ مجموع ومقلةٍ تفيضُ بالدموع
بالألف والألفين والثلاث ما غافل القلب كمثل الجاثي

قال - رحمه الله -:

يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمَلِكِ بِفَعْلِهِمْ طَاعَاتِهِ وَالتَّكْرِ لِلْعِصْيَانِ
فِعْلُ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ دَأْبُهُمْ مَعَ رُؤْيَا التَّقْصِيرِ وَالنَّقْصَانِ

من صفاتهم أنهم يتقربون إلى الله تعالى بفعل الطاعات ولا سيما الفرائض وترك المعاصي وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: **«وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا اقْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»**^(٥).

فِعْلُ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ دَأْبُهُم الدَّأْبُ: العادة والشأن. شأنهم فعل الفرائض وهي ما طلبه الشارع على وجه الإلزام والنوافل وهي ما زاد على الفرائض مما طلبه لا على وجه الإلزام.

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) الوابل الصيب ص ٤٢.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٦).

(٤) الفوائد ص ١٩٢.

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

مَعَ رُؤْيَا التَّقْصِيرِ وَالتَّقْصَانِ قال الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- في شرحه^(١): "هذا هو الكمال وهو أن يجتهد في أداء الفرائض والإكثار من النوافل ويرى نفسه مقصراً مفرطاً".

هذه حال العبد الصادق لا يرى نفسه إلا مقصراً، ونحسب الشيخ ابن سعدي كان كذلك. له -رحمه الله- في أبيات من منظومة له في العقائد والأخلاق اسمها منهج الحق، قال بعد الحث على الإكثار من ذكر الله^(٢):

ولكننا من جهلنا قلّ ذكرنا كما قلّ منّا للإله التّعبّد

انظر مطابقة قوله هناك لقوله هنا: **مَعَ رُؤْيَا التَّقْصِيرِ وَالتَّقْصَانِ**.

لم يقل: ولكنكم من جهلكم قلّ ذكركم كما قلّ منكم للإله التّعبّد، بل قال: ولكننا من جهلنا قلّ ذكرنا... هذه حال العلماء. ونظيره قول أبي إسحاق الإلبيري في تائيته بعد أن بذل نصحه:

وقل يا ناصحي بل أنت أولى بنصحك لو لفعلك قد نظرتا

تقطّعي على التفريط لو ما وبالتفريط دهرك قد قطعتا

فالعالم الصادق لا يرى نفسه متميّزاً بشيء، وقد ذكر السخاوي في الجواهر والدرر في ترجمة الحافظ ابن حجر^(٣) أنه سأله: هل وقع لكم استيفاء يوم في القراءة؟ -يعني: مثل ما حصل للخطيب البغدادي- فقال الحافظ ابن حجر: "أين الثريا من الثرى". هكذا كانوا رحمهم الله وسلك بنا سبيلهم. قال -رحمه الله-:

صَبَرُوا النَّفُوسَ عَلَى الْمَكَارِهِ كُلِّهَا شَوْقًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَانٍ

من صفاتهم أنهم صبروا نفوسهم على أمر الله ﷻ وهذه منزلة الصبر، وقد أمر الله تعالى به وأخبر أنه مع أهله ينصرهم ويؤيدهم ويوفقهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. وجعله طريقاً إلى الإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

(١) ص ١٨.

(٢) انظر: شرح منهج الحق ص ٨٢.

(٣) (١/١٦٣).

وأخبر سبحانه عن مضاعفة أجر الصابرين ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ ﴿إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ولابد أن يكون الصبر لله لا ليقال: صابر ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر﴾ ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾. والصابر لا يزال مهدياً من ربه، موفّقاً للصواب، قال ﷺ: «**وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ**»^(١). والصبر ثلاثة أقسام:

الأول: صبر على طاعة الله، وذلك أن النفس لا تستقيم على أمر الله الشرعي بيسر وسهولة، بل لابد من ترويضها وحملها على الطاعة ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

والثاني: صبر عن المعاصي، والعبد محتاج في كف نفسه عن ملذات الدنيا وشهواتها ومعاصي الله إلى الصبر، قال تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ ويدخل في ذلك الصبر عن معصية الله. قال سهل بن عبد الله التستري: "أعمال البر يعملها البر والفاجر، ولا يجتنب المعاصي إلا صديق"^(٢).

والثالث: صبر على أقدار الله المؤلمة وعلى أنواع البلاء، فلا يجزع ولا يتسخط، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

وقد كان السلف يعظمون أمر التّسخط، قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "لأنّ أعص على جمرة حتى تبرّد أحبّ إلي من أقول لشيء قضاه الله ليته لم يكن"^(٣).

وقال أبو مسعود البلخي: "من أصيب بمصيبة فزق ثوباً أو ضرب صدرًا فكأنما أخذ رُمحاً يريد أن يقاتل به ربه عز وجل"^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/٢١١).

(٣) أخرجه أبو داود في الزهد (١٢٨).

(٤) إحياء علوم الدين (١٣٣/٤).

وينبغي للمسلم أن يصبر نفسه عند المصيبة بأن يذكر مصابه بالنبي ﷺ قال ﷺ: «إِذَا أُصِيبَ أَحَدُكُمْ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي؛ فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْمَصَائِبِ»^(١).

وينبغي أن يعلم المصاب المتعلق بجمال الفرج، أن الذي ابتلاه بمصيبته هو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأنه سبحانه ما ابتلاه ليهلكه ولا ليعذبه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره، ويسمع تضرعه ودعائه، وليراه طريقاً ببابه، لائذا بجنابه، رافعاً يدي الضراعة إليه، يشكو به حزنه إليه، فينال بذلك عظيم موعود الله، وجزيل عطاءه ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّهَدُونَ﴾^(٢). وينبغي أن يعلم المصاب أنه كلما اشتد الكرب كان الفرج قريباً.

اَشْتَدِّي اَزْمَةً تَنْفَرِجِي قَدْ اَذَنَ لَيْلِكَ بِالْبَلَجِ
وَلَرَبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى ذَرَعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحَكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرِجُ

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمِمَّا يَضَعُ الْفِتْنَةَ عَنْ النَّاسِ﴾

والنظر في أحوال الصابرين يعينك على التحقق بهذا المقام.

هذا عروة بن الزبير - رحمه الله - أصابته الآكلة في قدمه فقطعت، وكان له ابن من أحب ولده إليه ركضته بغلة فمات، فقال عروة: "اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة، وكانت لي أطراف أربعة فأخذت منها طرفاً وأبقيت لي ثلاثة، فلئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لطالما عافيت"^(٣). وقال أحدهم: رأيت مرة أحد الصالحين أصابته قرحة في إصبعه فقلت له: ألا تشكي؟ ألا تتألم؟ فقال ذاك الصالح: رأيت لو كانت هذه القرحة في وجهي! رأيت لو كانت في

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/٢٧٥)، الدارمي في السنن (٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٦٧١٨)، وصححه

الألباني بشواهد في السلسلة الصحيحة (١١٠٦).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٥٠٥).

لساني! رأيت لو كانت في عيني! يقول: فما زال يقول لي: رأيت... رأيت... حتى ظننت أن هذه القرحة أعظم نعمة أنعم الله بها عليه. فعلى المصاب أن يستشعر نعمة الله عليه في هذه المصيبة، وأنها لم تكن أعظم منها، وأنها لم تكن في دينه. قال شريح القاضي: "إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات، أحمده أن لم تكن أعظم منها، وأحمده أن لم تكن في ديني، وأحمده أن رزقني الصبر عليها، وأحمده أن وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب"^(١).

ومما يُعين على الصبر احتساب ثواب الله في الآخرة، قال بعض السلف: "لولا مصائب الدنيا لقدمنا على الله مفاليس"^(٢).

وفي الحديث: «يُودُّ أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب، لو أنَّ جلودهم كانت قُرِضَتْ في الدنيا بالمقاريض»^(٣)، وقال ﷺ: «إِنْ عِظَمَ الْجَزَاءُ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنْ اللَّهُ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»^(٤) وقال ﷺ: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةُ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(٥).

والعبد قد تكون له عند الله المنزلة العالية، وقد قَصَّرَ به عمله عن بلوغها، فيبتليه الله ليرفعه إليها، في الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ابْتِلَاؤُهُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ، أَوْ فِي مَالِهِ، أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَرَهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَبْلُغَهُ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى»^(٦).
قال -رحمه الله-:

نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرِّضَا فَهُمْ بِهَا قَدْ أَصْبَحُوا فِي جَنَّةٍ وَأَمَانَ

(١) الفرج بعد الشدة للتتوخي (١٥٨/١)، وسير أعلام النبلاء (١٠٥/٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٦٤/١٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢)، وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (١٣٥٨/٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٧٦/١).

(٥) أخرجه أحمد (١٤٨١)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٧٣/١).

(٦) أخرجه أبو داود (٣٠٩٠)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٥٩٩).

إذا كان الصابرون يوفيههم الله يوم القيامة أجورهم بغير حساب، فكيف بالراضين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه! منزلة الرضا أرفع من منزلة الصبر، والفرق بينهما أن الصبر حبس النفس على ما تكره، مع وجود منازعة فيها، وبالرضا تَصْمَحِلُ تلك المنازعة ذكره الناظم في شرحه^(١).

فالرضا تلقي أحكام الله بانسراح وسرور نفس مع عدم وجود تلك المنازعة، ويشمل ذلك الأحكام القدرية والشرعية، وفي كل صباح ومساء يُقرّ المسلم بهذا المعنى العظيم ويقول: «رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا» والشأن كل الشأن في التحقق بهذا المعنى.

ويكفي في الحث على الرضا أن تعلم أنه سبب لوجوب الجنة لصاحبه قال النبي ﷺ لأبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٢). ثم إن الراضي يذوق طعم الإيمان قال ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»^(٣). والراضي أغنى الناس قال ﷺ: «وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ»^(٤).

وكل ما قيل في الصبر من فضله والثمرات التي يجتنيها الصابر، فهو ثابت في الرضا وزيادة، لأن الرضا صبر وزيادة، فالراضي قد حقق مقام الصبر ثم عالج نفسه وروضها حتى وصل إلى مقام الرضا بأحكام الله، وتلقيها بانسراح وسرور نفس. وقد ذكر الناظم ثمرة يجتنيها من نزل منزلة الرضا، وهي ما يجده في نفسه من الطمأنينة والسرور والنعم، فالرضا سبب لنزول السكينة على العبد، فينعم حاله، ويصلح باله، ويطيب عيشه، وإذا ترحلت عنه هذه السكينة ترحل عنه السرور وطيب العيش، ولهذا سمي الرضا جنة الدنيا ومُسْتَرَاخَ الْعَابِدِينَ، لما يوجبها للعبد من الطمأنينة وبرد القلب وسكونه وقراره. مرض عمران بن حصين - رضي الله عنهما - في آخر حياته، فبقي مُلْقًى على ظهره لا يقوم ولا يقعد،

(١) ص ٢٠.

(٢) أخرجه مسلم (١١٦).

(٣) أخرجه مسلم (٣٤).

(٤) أخرجه أحمد (٨٠٩٦)، والترمذي (٢٣٠٥)، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٠١/٢).

فدخل عليه بعض أصحابه، فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال له عمران: "لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة. قال: "لا تبك فإن أحبه إلى الله أحبه إلي".^(١) انظر كيف يثمر الرضا التسليم لأحكام الله، ويذهب شكوى الربِّ إلى غيره "ولهذا سمي بعض العارفين الرضا حسن الخلق مع الله".^(٢)

قال - رحمه الله -:

شكروا الذي أولى الخلائق فضله بالقلب والأقوال والأركان

الشكر: ظهور أثر نعمة الله على قلب العبد ولسانه وجوارحه، يكون بالقلب بأن يعترف بأن الله تعالى هو مُسدي هذه النعم المتفضل بها، وباللسان بأن يثني على الله تعالى بها ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وبالجوارح بالاستعانة بنعمه على طاعته ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾.

وقد أمر الله تعالى بالشكر فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

وأخبر سبحانه أن شكره سبب لرضاه ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ وأنه أمان من العذاب ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ قال قتادة: "إن الله - جل ثناؤه - لا يعذب شاكرًا ولا مؤمنًا".^(٣)

والشكر سبب للزيادة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال عمر بن عبدالعزيز: "قيدوا النعم بالشكر"^(٤)، وقال الحسن البصري: "إن الله ليمتّع بالنعمة ما شاء فإذا لم يشكر عليها قلبها عذاباً"^(٥)؛ لهذا كانوا يسمون الشكر الحافظ الجالب؛ لأنه يحفظ النعم الموجودة ويجلب النعم المفقودة. ثم الشكر سبب للأجر الجزيل ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (٤٦١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٦٩٣).

(٢) مدارج السالكين (٢١٢/٢).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٦٢٤/٧).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٧).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧).

وأهل الشكر هم المخصوصون بمنة الله عليهم من بين عباده قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً ﴿لِيَقُولُوا﴾ أي قال الأمر إلى أن قال الكافرون الأغنياء: ﴿أَهْوَاءُ مَنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: أهواء الفقراء تفضل الله عليهم بالهداية من بيننا لو كان الإيمان خيراً ما سبقونا إليه فقال الله تعالى ردّاً على قولهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ لِنَعْمِهِ فيوفّقهم للإيمان، فشكّرهم هو سبب توفيقهم للإيمان، والذي لا يشكر يُحرّم التوفيق.

وأعلى الشاكرين وأعظمهم قدراً في الشكر وفي كل فضيلة هو نبينا ﷺ كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ويقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(١) و«كَانَ إِذَا جَاءَهُ أَمْرٌ يَسْرُهُ خَرَّ سَاجِدًا لِلَّهِ شُكْرًا لَهُ»^(٢). وعلم النبي ﷺ معاذاً - رضي الله عنه - أن يقول دُبُر كل صلاة: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(٣).

وعلى العبد إذا قال: الحمد لله أن يستشعر معنى ما يقول وأن يحضر قلبه. فقد رجل بغلته فقال: إن ردّ الله عليّ بغلتي لأحمدنه بحامد يرضاها، فما لبث أن أتى بها فركبها، فلما استوى عليها، وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال: الحمد لله لم يزد عليها، فقيل له في ذلك؟ فقال: هل تركت شيئاً! جعلت الحمد كله لله ﷻ^(٤). وهذا رجل أنعم الله عليه بنعمة فقال: الحمد لله، يقول: فوجدت لها لذة في قلبي فجعلت أكرها وأذوق حلاوتها ولذتها، فقلت: لا بد أن يكون لي ورد من قول: الحمد لله، يقول: ثم وجدت أنني أقولها دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، لكنني لا أستشعر معناها ولا أحضر قلبي فيها، ولو أنني أحضرت قلبي فيها لتنعمت بها. قال - رحمه الله -:

صَبِّبُوا التَّوَكَّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَعَ بَذْلِ جُهْدٍ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٧٤)، والترمذي (١٥٧٨)، وابن ماجه (١٣٩٤)، حسنه الألباني في الإرواء (٢٢٦/٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).

(٤) انظر: صفة الصفوة (٣٦٣/١)، وعدة الصابرين ص ١٣١.

التوكل: إظهار العبدِ عجزه واعتماده على الله تعالى، وهو من أعظم العبادات القلبية، وقد أمر الله تعالى به فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. والتوكل شرط في الإيمان ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

والتوكل على الله تحصل له الكفاية التامة ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي كافيته في كل شيء في صحته ورزقه وقوته وقوته وذريته وفي كل شيء.

وانظر إلى كفاية الله المتوكل، إبراهيم -عليه السلام- حين أُلقي في النار، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، كيف كانت العاقبة؟ ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ.

نبينا ﷺ وأصحابه -رضي الله عنهم- حين قال لهم الناس ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ كيف كانت العاقبة؟ ﴿فَاتَقَلَّبُوا مِن بِنْعَمَةِ اللَّهِ وَفَضَّلِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾.

مؤمن آل فرعون حين كاده قومه قال: ﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِئْضُ أُمُورِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ كيف كانت العاقبة؟ ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوا وَحَاقَ بِالْفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

وقد قال النبي ﷺ: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدَيْتَ، وَكُفِّيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَنْتَحَىٰ لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانُ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِّي وَوُقِيَ؟»^(١) فالتوكل من أعظم أسباب كفاية الله للعبد.

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٥٩)، والترمذي (٣٤٢٦)، وابن ماجه (٣٨٨٦)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (٤٩٩).

وهو من أعظم ما يُستجلب به الرزق قال ﷺ: «لو أنكم تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»^(١) أي تخرج أول النهار ضامرة البطن من الجوع وترجع آخره ممتلئة البطن من الشبع "وهذا الحديث أصل في التوكل وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزق"^(٢). وانظر إلى قوله -صلى الله عليه وسلم-: «تغدوا» هذا فيه إشارة إلى بذل الأسباب، فتحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب، بل ترك الأسباب سوء فهم للتوكل، ولما قال رجل للنبي ﷺ يا رسول الله: أعقلها -أي الناقة- وأتوكل؟ أو أرسلها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»^(٣) فأرشده النبي ﷺ إلى الجمع بين فعل السبب والاعتماد على الله ﷻ.

وقد قيل للإمام أحمد: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتي رزقي؟ فقال الإمام أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُغْمِي»^(٤) وقال حين ذكر الطير: «تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»^(٥) ولهذا قال الناظم:

مَعَ بَذْلِ جُهْدٍ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ
قال -رحمه الله-:

عَبُدُوا إِلَهَ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُورِهِ فَتَبَوَّأُوا فِي مَنَزِلِ الْإِحْسَانِ
هذه منزلة الإحسان وهي لبُ الإيمان وروحه وكلمه، وقد فسر النبي ﷺ الإحسان فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٦).
«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» هذا مقام المشاهدة.
«فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» هذا مقام المراقبة.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٢٠/١).

(٢) قاله ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٤٩٦/٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (١٠٦٨).

(٤) أخرجه أحمد (٥١١٤)، وصححه الألباني في تخريج مشكاة الفقر ص ٢٥.

(٥) سبق تخريجه قريباً.

(٦) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٧٥٤).

(٧) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

والعبد مأمور بالإحسان وذلك بأن يُتقن عبادته ويأتي بها على أكمل وجه ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ يعني: أحسن في عبادتك لله، وأحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك. وقد علم النبي ﷺ معاذًا -رضي الله عنه- أن يسأل الله أن يرزقه حسن عبادته فقال: «أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(١). وكان من دعائه ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ»^(٢).

ومما يُعين على إحسان العمل استشعار العبد أن الله مُطَّلِعٌ عليه لا يخفى عليه من عمل العبد شيء ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ فمن علم يقينًا أن الله هو الرقيب الشهيد وأنه مُطَّلِعٌ عليه، يعلم ما العبد عامل، ساقه ذلك سوقًا حثيثًا إلى أن يُحسن في عبادة ربه، وأن يأتي بالعبادة على أكمل الوجوه. ولا يزال العبد يحمل نفسه على الإحسان في العبادة ويعودها إياه حتى يصير ذلك صفةً راسخةً فيه لا يتكلفها، فيعيش قرير العين بربه فرحًا مسرورًا بقربه.

وانظر في حال النبي ﷺ مع هذه المنزلة كان ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه^(٣)، يصلي بالبقرة وآل عمران والنساء في ركعة واحدة^(٤)، وكيف كان يقرأ؟ كان لا يمر بآية رحمة إلا وقف عندها فسأل، ولا آية عذاب إلا وقف عندها فتعوذ، ولا آية تسبيح إلا وقف عندها فسبح الله^(٥)، حقًا

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (١٣٢٠/٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٧١١٤)، وحسنه محققوه.

(٣) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

(٤) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٥) كما في المصدر السابق ومسنَد الإمام أحمد (٢٣٣٦٧).

يعبد الله على الحضور والمشاهدة كأنه يرى الله بقلبه، حتى في قراءته لسورة الفاتحة يقف عند رؤوس الآيات^(١)، لأنه يستشعر أنه إذا قال: الحمد لله رب العالمين، أن الله تعالى يقول: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، أن الله تعالى يقول: أثني عليّ عبدي^(٢). الذي يصل إلى هذه المرحلة في العبادة يعيش في شأن والناس في شأن آخر، انظر إلى سجوده ﷺ في قيام الليل، كان يسجد بقدر ما يقرأ أحدنا خمسين آية^(٣)، هذا لا يكون إلا لشوق وتعلق عظيم بالله غلب على قلبه فما يطيق أن يرفع رأسه.

وهكذا كان من بعده من الصحابة والتابعين، ابن عمر -رضي الله عنهما- كان في الطواف فطلب منه عروة بن الزبير طلباً، قال عروة: فلم يُجِبني بكلمة، ثم لقيه عروة بعد ذلك، فقال له ابن عمر -رضي الله عنهما-: "نحن في الطواف نتخايل الله بين أعيننا، وكنت قادراً أن تلقاني في غير ذلك الموطن"^(٤). انظر إلى قوله: "نحن في الطواف نتخايل الله بين أعيننا"، هذا هو الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

ونظر عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- إلى الصنابحي -وهو من أئمة التابعين- فقال: "من سرّه أن ينظر إلى رجل كأنما رُقي به فوق سبع سموات فعَمِلَ ما عَمِلَ على ما رأى فليُنظر إلى هذا"^(٥). وتأمل في جزاء المحسنين لما كان المحسن يعبد الله في الدنيا كأنه يراه جازاه الله في الجنة برويته ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم^(٦)، وكل مؤمن يرى ربه في الجنة، لكن هؤلاء لهم شأن آخر لإحسانهم.

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٢٩٢٧)، وصححه الألباني في الإرواء (٦٠/٢).

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٥).

(٣) أخرجه أخرجه البخاري (٩٩٤).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٠٩/١).

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (٨٥٧)، وعنه أبو نعيم في الحلية (١٢٩/٥).

(٦) أخرجه مسلم (١٨١).

ومن أعظم الغبن أن يفارق الإنسان الدنيا وما باشر قلبه حقائق الإيمان، ولا ذاق حلاوتها، ولا شَمَّ لهذه المقامات العالية رائحة، هذا -والله- من أعظم الغبن.

وهذا أمر يستطيع أحدنا أن يصل إليه إذا بذل أسبابه، لا تظن أنه بعيد خارج عن قدرة البشر، ليس الأمر كذلك، فهؤلاء الأئمة الذين وصلوا إلى هذه المقامات العالية من البشر إلا أن هذه المقامات تحتاج كما ذكر الناظم في شرحه^(١) إلى تدرّج للنفوس شيئاً فشيئاً، ولا يزال العبد يعودها نفسه حتى تنجذب إليها وتعتادها فيعيش العبد قريراً العين بربه فرحاً مسروراً بقربه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولا تستبعد أبداً أن يَمُنَّ عليك المنان بهذه المقامات العالية، فإنه سبحانه إذا أعطى أدهش.

هي المواهبُ لم أشدُّ لها زيمي فلا يقال لفضل الله: ذا بِكَم

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

قال -رحمه الله:-

نَصَحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَا مَحْبُوبِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالْإِرْشَادِ وَالْإِحْسَانِ
صَحِبُوا الْخَلَائِقَ بِالْجُسُومِ وَإِنَّمَا أَرْوَاحُهُمْ فِي مَنَزِلٍ فَوْقَانِي

صحبتهم للخلق قائمة على النصيح بما فيه رضا محبوبهم وهو الله -جل وعلا-، والنصيحة شأنها عظيم،

وقد جعل النبي ﷺ الدين كله النصيحة، قال ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قال تميم الداري -رضي الله

عنه- قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»^(٢).

وقد قال النبي ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ» وفيه قوله: «وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ»^(٣).

(١) ص ٢٤.

(٢) أخرجه مسلم (٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٠)، مسلم (٣٩٥).

وتكون نصيحة الخلق بحجة الخير لهم، وإرشادهم إلى ما يصلح دينهم ودنياهم بتعليم جاهلهم، وإرشاد ضالهم، ورعاية محتاجهم، وكف الأذى عنهم، والإحسان إليهم بأنواع الإحسان، وأعلى ذلك وأرفعُه تعليمهم العلم الشرعي.

وللنصيحة فوائد عظيمة، فكم من مُنكر زال بسبب نصيحة صادقة، وكم من عاصٍ تاب بسبب نصيحة، بل كم من كافر أسلم بسبب نصيحة، فالنصيحة إذا شاعت صلح المجتمع وقلّت المنكرات. ثم في النصيحة براءة ذمة الناصح ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني قالت جماعة للناصحين: لم تنصحنو جماعة الله مهلكها في الدنيا بذنوبها أو معذبها يوم القيامة عذاباً شديداً، فقال الناصحون: نصيحتنا هذه معذرة إلى الله بفعل ما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا نؤاخذ على ترك النصيحة، ولعلهم ينتفعون بالنصيحة فيقلعون عما هم فيه من المعصية. وهذا يعلمك ألا تكون نصيحتك على شرط القبول منك، بل تنصح إبراءً لذمتك ونفعاً للمنصوح، فإن انتصح فذاك وإلا فقد أبرأت ذمتك، وقد قال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيظُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»^(١).

وهذه الصحبة للخلق إنما هي بالجسوم، وأما أرواحهم فهي مع الله - سبحانه وتعالى - لا مع الخلق، قال الناظم في شرحه^(٢): "وأما قلوبهم وأرواحهم فإنها تدور حول الحبيب وتطلب من قُربه أعظم نصيب" وهذا الذي قاله الناظم يطابق ما قاله الجنيد في سرِّ حسن خلق النبي - صلى الله عليه وسلم - فإنه قال في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: "سَمَّىٰ خَلْقَهُ عَظِيمًا إِذْ لَمْ تَكُنْ لَهُ هِمَّةٌ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، عَاشَرَ الْخَلْقِ بِخُلُقِهِ وَزَايَلَهُمْ بِقَلْبِهِ، فَكَانَ ظَاهِرُهُ مَعَ الْخَلْقِ وَبَاطِنُهُ مَعَ الْحَقِّ"^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

(٢) ص ٢٥.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٣٤٦/٥).

قال - رحمه الله -:

بِاللهِ دَعَاؤُ الْمَشَاهِدِ كُلِّهَا خَوْفًا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ

هذا البيت مما اضطربت فيه النسخ وقد ذكر الشيخ عبدالرزاق العباد - حفظه الله - في

شرحه^(١) أن صواب الشطر الأول من البيت: **رَعَوْا الْحَقَائِقَ وَالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا**

وهذا الذي يطابق قول الناظم في شرحه^(٢): "هذه منزلة الرعاية لحقائق الإيمان ومشاهد

الإحسان" ونقل هذا التصحيح الشيخ صالح العصيمي - حفظه الله - وقال^(٣): "هذا هو الصواب".

المعنى: أنهم تعاهدوا حقائق الإيمان ومشاهد الإحسان بالرعاية لها صيانةً لها عما ينقصها أو

يُفسدها.

لماذا يتعاهد العبد هذه الحقائق الإيمانية؟ قال: **خَوْفًا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ**

يحاسب نفسه ويتعاهد إخلاصه يقول: ما قصدت بقولي؟ ما قصدت بفعلي؟ يتعاهد هذه المنازل

كلّها من خوف ورجاء ومحبة وغير ذلك من المنازل، فيراعي مشهد الإحسان هل هو محسنٌ

في عبادته؟ هل يعبد الله بحضور قلب؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُنْظِرُوا نَفْسُ مَا قَدَمْتُ لَعْدٍ﴾.

انظر في أعمالك، تدبر أحوالك، حاسب نفسك، تزيّن ليوم تُعرض فيه على الله ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ

لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وإذا أهمل العبد منزلة الرعاية فإنه لابد أن ينقص من إيمانه بقدر ما نقص من رعايته لعمله،

لذا قال: **خَوْفًا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ**

وتعهد العبد نفسه في سيره إلى الله، وتدبره في أحوالها يُطلعه على عيوب نفسه، وهذه نعمة

عظيمة؛ لأن من لم يطلع على عيوب نفسه لم تمكنه إزالتها، ثم إن هذه الرعاية تُبعد العبد عن

(١) على هذا الرابط: <https://youtu.be/9iPTgJx1wnA> من ٣٠:١٢:١.

(٢) ص ٢٧.

(٣) على هذا الرابط: <https://youtu.be/pwnwa0lm0Eg>.

الغفلة، وتُعينه على استدراك ما نقص، ولا يزال العبد كذلك حتى يصل إلى أعلى مقامات العبودية لله تعالى.

ولأبي الدرداء -رضي الله عنه- كلمة جليلة في هذا المقام يقول: "إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أمزداً هو أم منتقص، وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتیه"^(١). وقال ميمون بن مهران: "لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه"^(٢).
قال -رحمه الله:-

عَزَفُوا الْقُلُوبَ عَنِ الشَّوَاعِلِ كُلِّهَا قَدْ فَرَّغُوا مِنْ سِوَى الرَّحْمَنِ
حَرَكَاتِهِمْ وَهَوْمِهِمْ وَعَزُومِهِمْ اللَّهُ لَا لِلْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ

يقال: عَزَفَتْ نَفْسُهُ عَنِ الشَّيْءِ إِذَا زَهَدَتْ فِيهِ وانصرفت عنه. فَمِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ فَرَّغُوا قُلُوبَهُمْ وَصَرَفُوهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يَشْغَلُهُمْ عَنِ اللَّهِ وَلَا يَنْفَعُهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ.

وقد صلى النبي ﷺ في خميسة -والخميسة كساء رفيع يلبسه أشرف العرب- لها أعلام، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأَثُونِي بِأَنْبَجَانِيَّةٍ أَبِي جَهْمٍ» والأنبجانية: كساء غليظ ليس فيه خطوط «فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي أَنْفًا عَنْ صَلَاتِي»^(٣). لما ألهته الخميسة عن صلاته أخرجها من ملكه.

وباع عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- جملاً له، فقيل له: لو أمسكته، فقال: "لقد كان موافقاً، ولكنه أذهب شعبة من قلبي فكرهت أن أشغل قلبي بشيء"^(٤). وهذه تخلية للقلب عن

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠١٦/٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٢٥.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٣)، ومسلم (٥٥٦).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٨/٨).

الأوصاف الرديئة، ولا يكفي هذا حتى يمتلئ القلب بالمعاني الإيمانية من محبة الله والشوق إليه والإخلاص ونحو ذلك من حقائق الإيمان، فتكون أفكار العبد كلها فيما يقربه إلى الله. يتفكر في الآخرة وشرفها ودوامها، فيرغب فيها ويشمّر إليها. يتفكر في الدنيا ودنوها وفناءها فيرغب عنها ويزهد فيها. يتفكر في قرب الأجل فيورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الأنفاس والمحظّات.

يتفكر في نعم الله عليه، وعظيم آلائه لديه. يتفكر في القبر وأحواله، ويوم القيامة وأهواله. يتفكر في الجنة ونعيمها، والنار وحيمها. هذه العبادة تجدد إيمان العبد، وتورثه حياة القلب، والعمل للآخرة، ومدافعة الهوى، فهي مفتاح لكل خير.

يقول سفيان بن عيينة: "الفكرة نورٌ تدخله قلبك" وكان دائماً يتمثل هذا البيت:
إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة^(١)

قال أبو سليمان الداراني: "إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليّ فيه نعمة، ولي فيه عبرة"^(٢). وصح عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- أنه قال: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة"^(٣). وقال عون بن عبدالله: سألت أمّ الدرداء ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: "التفكر والاعتبار"^(٤). وبكى عمر بن عبدالعزيز يوماً، فلما تجلّى عنه ما به سألت زوجته: مم بكيت؟

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٠٦/٧).

(٢) تفسير ابن كثير (١٨٤/٢).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٧٤٦).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٧٢٠).

فقال: "ذكرت مُنْصَرَفَ القوم بين يدي الله ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(١). وبكى أحد السلف فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: "تفكرت في ذهاب عمري، وقلة عملي، واقتراب أجلي"^(٢). وينبغي أن نعوّد أنفسنا عبادة التفكر، وأن نروضها عليها حتى يصير التفكر سجيةً من سجايا النفس وخلقاً من أخلاقها، قال أبو سليمان الداراني: "عوّدوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر"^(٣). قال - رحمه الله -:

نَعَمْ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي تَقْضِي إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ
هؤلاء السعداء الذين تجنبوا سبل الردى وتيمموا لمنازل الرضوان الذين شنف أسماعنا بأوصافهم هم الذين يُحرص على صحبتهم. قال ﷺ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا»^(٤). وقال ﷺ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يَخَالِلُ»^(٥).

وليس شيءٌ أبلغ في صلاح العبد من الصُحبة الصالحة، وليس شيءٌ أبلغ في فساده من الصُحبة السيئة، ولن تجد أحداً نقص بعد زيادة أو ضل بعد هدى إلا والسبب غالباً في الصُحبة. فهؤلاء الذين هذه أوصافهم هم الذين يسعد بصحبتههم ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٦).

وجميع منازل السائرين - ما ذكره الناظم منها وما لم يذكره - يجمعها لك في قلبك ويجعلك تذوق حلاوتها وتعيش لذتها أن تُقبل على قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فلا شيء أنفع للقلب

(١) صفة الصفوة (٣٦٨/١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العمر والشيب ص ٥٦.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٧٤/٩).

(٤) أخرجه أبوداود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (١٢٢٦/٢).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٧٩/٢).

من تدبر القرآن الكريم، فإنه الجامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه، ذكره ابن القيم - رحمه الله تعالى - ثم قال: "فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها... فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن... فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب"^(١) خصوصاً إذا كانت هذه القراءة في قيام الليل قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ لذلك إذا أردت أن تضرب بسهم وافر في أعمال القلوب فعليك بقيام الليل وتدبر القرآن فيه، فهذا الذي ربي الله به نبيه ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم -، فمن أول ما نزل من القرآن في أول الدعوة ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قبل أن تفرض الصلوات الخمس فرضت صلاة الليل على النبي ﷺ وأصحابه سنة كاملة، حتى نزلت الآية الأخيرة من السورة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى أن قال: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ قَاتَبَ عَلَيْكُمْ﴾ فُنسخ الوجوب عن النبي ﷺ والأمة، أو عن الأمة فقط دون النبي ﷺ قولان للفقهاء، فإذا أردت أن يستقيم حالك، وألا تتفلت منك نيتك، وأن تجد في قلبك حلاوة الإيمان، ولذة الطاعة، وأن تبلغ المنازل العالية في الإيمان وأعمال القلوب فعليك بقيام الليل، إذا لم يتيسر لك قيام آخره فقم قبل أن تنام أو بعد صلاة العشاء، قال ﷺ: «مَنْ خَافَ أَلَّا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيَقُمْ أَوَّلَهُ، وَمَنْ طَمَعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَ اللَّيْلِ فَلْيَقُمْ آخِرَ اللَّيْلِ؛ فَإِنْ صَلَاةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ وَذَلِكَ أَفْضَلُ»^(٢) فإن لم يتيسر هذا ولا ذاك فبين المغرب والعشاء، وقد ثبت عن أنس - رضي الله عنه - أنه قال

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/١٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٧٥٥).

في قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ قال: "كانوا يصلون فيما بين المغرب والعشاء"^(١) وكذلك قال في قوله تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾^(٢). وورد عن سلمان الفارسي -رضي الله عنه- أنه قال: "صلوا فيما بين المغرب والعشاء فإنه يخفف عن أحدكم من حزنه، ويذهب عنه ملغاة أول الليل؛ فإن ملغاة أول الليل مهدنة لآخره"^(٣). يقال: هدن هدونا إذا سكن، يعني: أن من ابتداء ليله باللغو فإنه لن يستيقظ لقيام الليل في آخره.

فإذا أردت أن تترقى في مقامات العبودية وأن تكون هذه المقامات العالية راسخة في نفسك فعليك بقيام الليل وطول القراءة فيه.

وكما أنك إذا أردت أن تحفظ متناً فإنك تُكثِّر من تَكَرَّره وتَرَدَّاده حتى يكون راسخاً في قلبك، فكذلك هذه الأعمال القلبية إذا أردت أن تكون راسخة في قلبك فعليك بالإكثار من العبادة وإطالة الصلاة قيامها وركوعها وسجودها، تدبر القرآن في قيامها، وتُعَظِّم الله في ركوعها، وتطيل الدعاء في سجودها، وكان بعض أهل العلم يقول: "أفضل دورة عملية لتخرج دعاة مؤهلين إيماناً للدعوة إلى الله هي طول قيام الليل" قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هذا القول الثقيل لن تستطيع أن تتحمل أعباءه وأعباء الدعوة إليه إلا بزيادة عظيم من الإيمان تحصله بقيام الليل كما قال الله تعالى بعدها: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

وهذا الذي تدارسناه من هذه الأعمال القلبية إنما هو إشارات تُطَّلَع على ما وراءها، وإلا فشأن هذه الحقائق الإيمانية أجلُّ من أن تُحِيط به العبارات. وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو من وصف أحوال هؤلاء القوم مع عدم الاتصاف بها، إلا أن محبتهم تحمل على التعرف على أحوالهم والنظر في أخبارهم، وإن كانت النفس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم.

(١) أخرجه أبو داود (١٣٢٢)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٢٢/٢).

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٢١)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٢٢/٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٧٢٦).

وفضل الله واسع فليس بينك وبين هذه الأحوال إلا أن تصدق الله، وتُدِيمَ اللَّجَأَ إليه، وتُلْقِيَ
نفسك على بابه طريقاً خاضعاً راجياً فضله طامعاً في عطائه.
نسأل الله أن يسلك بنا سبيلهم، وأن يرزقنا التحقق بأوصافهم، وأن يُعِينَنَا على ذكره وشكره
وحسن عبادته، والله تعالى أعلم.